صُوَرٌ من الجهاد الأفغاني في العصر الإسلامي

● د. أحمد محمد عدوان ●

في الوقت الذي تعرض فيه المسلمون في بلاد الشام ومصر للغزو الصليبي، كان إخوانهم في المشرق الإسلامي يتعرضون لهجمات شرسة من قبل الخطا(١)، لكنهم وإن خسروا بعض المواقع في مصر والشام بصفة مؤقتة فإن مواقع أكبر مساحة وأكثر سكاناً قد دخلت في حوزة المسلمين في المشرق بصفة دائمة.

وكان أبطال هذا الإنجاز أبناء منطقة افغانستان الذين لم يكتفوا بالتصدي للهجمة الخطائية وإفشالها، بل عملوا من ناحية أخرى على ضم أراضٍ جديدة من شبه القارة الهندية ونشروا فيها الإسلام ورفعوا هناك كلمة التوحد لأول مرة، حيث وصلت القوات الإسلامية الأفغانية إلى مناطق لم تطأها أقدام المسلمين من قبل، كما سيتضح ذلك في ثنايا البحث.

ففي المنطقة الواقعة بين هراة(٢) وغزنة(٣) افغانستان الحالية ــ عاشت جماعات وثنية اعتادت السلب والنهب وشن الغارات بين الحين والآخر على حدود الدولة الغزنوية(٤)، معتمدين في ذلك على إمكاناتهم البشرية وظروفهم الطبيعية، فبلادهم جبلية مرتفعة وعرة المسالك ضيقة الدروب، يتخذون منها ملاذاً كلما شعروا بالوهن أمام أعدائهم(٥).

لم يحتمل السلطان محمود الغزنوي ٣٨٧ ــ ٤٢١هـ ٩٩٧ ــ ١٠٣٠م زعيم الدولة الغزنوية عبث هؤلاء الجيران الوثنيين، فقرر التوجه إلى بلادهم مهاجماً لتحقيق أهداف

منها، تأمين حدوده المجاورة لبلادهم من ناحية، وكسبهم وإدخالهم في الإسلام إن أمكنه من ناحية ثانية، ثم من جهة ثالثة، فهو يريد أن يكون آمناً على بلاده أثناء اشتغاله بحملاته العسكرية العديدة إلى بلاد الهند التي أخذ يخضع أجزاء منها وينشر فيها الإسلام(٦).

وصلت الحملة الغزنوية إلى اهنكران مركز تجمعهم ودارت معركة كبيرة بين الطرفين استبسل فيها المدافعون، لكنهم لم يصمدوا أمام جيوش ترفع راية الجهاد وتصمم على إزالة الكفر أينما وجد وحسمت المعركة لصالح القوات الإسلامية(٧)، وفي عهد ابنه مسعود كان إتمام السيطرة على هذه المنطقة بعد معركة عنيفة غنمت فيها القوات الإسلامية الكثير من الأسرى وكثير من العدة والعتاد، وأمر السلطان أن ينادي لقد وهبنا المال والذهب والفضة والأسرى للجيش أما الأسلحة فيجب تسليمها(٨). وقد بذل الغزنويون جهداً كبيراً في نشر الإسلام بين هذه الجماعات فاستقدموا العلماء والفقهاء وبنوا المدارس وأقاموا المساجد وحطموا الأصنام وبيوت الأوثان(٩).

ظلت هذه المنطقة خاضعة للدولة الغزنوية، إلّا أن سكانها كانوا يتطلعون إلى الاستقلال، وأخذوا في إعداد أنفسهم لهذا الأمر ريثما تحين الفرصة المناسبة، وبالفعل فقد شُغلت الدولة الغزنوية بحروبها ضد السلاجقة(١٠)، فاستغل الأهالي هذه المناسبة، وأعلنوا تمردهم واصطدموا بقوات الغزنويين في معارك متعددة، وفقد الغور العديد من زعمائهم(١١)، حتى آلت الزعامة إلى علاء الدين الحسين بن الحسين الذي تمكَّن من هزيمة القوات الغزنوية وبعثرتها ودخل عاصمتهم غزنة واستقر بها في عام ٥٥٥ هـ.

وهكذا بدأت معالم دولة جديدة ترتكز على خارطة العالم الإسلامي في منطقة المشرق ما بين هراة وغزنة أي ــ افغانستان الحالية(١٢)، تابع علاء الدين جهوده في بناء دولته وإقرار أمورها، وبناء مؤسساتها وحقق لها الكثير من الأمن والاستقرار معتمداً في ذلك على جيش كبير ومنظَّم ضم عناصر متعددة إلى جانب الأفغان، فكان منهم الترك والخلج والفرس(١٣)، لكنه لم يلبث أن توفى(١٤)، فانتقلت الزعامة إلى ابنه سيف الدين محمد الذي لم يلبث أن توفي هو الآخر، فاتفق أمراء البلاد ورجالاتها على تنصيب ابن عمه شمس الدين سلطاناً، ولقب بغياث الدين، وعهد هذا السلطان إلى أخيه شهاب الدين بولاية غزنة(١٥).

وبينما كانت عجلة الأحداث تسير في اتجاه معاكس للوجود الغزنوي الذي أخذ يفقد هيبته يوماً بعد آخر، بل ويفقد أرضه قطعة وراء أخرى. استغل الهنود هذه الأحداث وأخذوا يهاجمون الممتلكات الغزنوية في بلاد الهند، وتمكنوا من دحر المسلمين عن بعض مواقعهم.

في هذه الفترة بدأت الأوضاع في منطقة افغانستان كما رأينا تأخذ طريقها نحو الاستقرار تحت زعامة الأسرة الغورية التي انتقلت بعد استقرار أمورها في الداخل إلى التوسع على حساب جيرانها، ونجحت في ذلك نجاحاً ملحوظاً دفعها إلى التفكير في تصفية البقية الباقية من (ممتلكات الغزنويين) في بلاد الهند(١٦).

وهكذا شرع أمراء الأفغان يعدون أنفسهم لهذه الخطوة الجديدة، إذ يذكر بانيكار أنه كلما كانت افغانستان قوية مدت نفوذها إلى بلاد الهند، والعكس كلما ضعف أمر أفغانستان أمنت الهند من غزوها لأراضيها(١٧). لم يكتف الأمير الأفغاني غياث الدين الغوري بما حققه من توسيع لممتلكاته لأن طموحاته كانت أكبر من ذلك بكثير، إذ كان يتطلع إلى مزيد من الانتصارات ضد الأمراء الهنود الذين أخذوا يزاحمونه ويتطلعون إلى إخراجه من بلادهم، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى كان يتطلع إلى نشر الإسلام في هذه البلاد. وقد ساعده على تحقيق هذا النجاح مجموعة من العوامل أهمها:

١ ـ الحماسة الدينية لدى الأفغان واندفاعهم نحو الجهاد في سبيل الله، خاصة وأن دخولهم في الإسلام لم يكن قد مر عليه زمن طويل، فأرادوا أن يعوضوا ما فاتهم في خدمة العقيدة.

٢ ـ التنافس والانقسام الذي كان قائماً بين الأمراء الهنود.

٣ ـ انخفاض المستوى التدريبي لقواتهم العسكرية، إذا ما قيست مع القوات الإسلامية التي كانت تحارب تحت قيادة واعية ومنظمة ومتحدة.

٤ ـ النظام الطبقي الذي كان سائداً بين الهنود أفسد العلاقة بين الراعي والرعية، وقتل فيهم روح التنافس والطموح.

هذه هي أهم العوامل والظروف التي ساعدت غياث الدين ورجاله على السير قدماً نحو تحقيق الأهداف التي أشرنا إليها، ولنتتبع المجهودات العسكرية لتوضيح ذلك.

سارت القوات الأفغانية بزعامة غياث الدين في اتجاه الملتان(١٨) وذلك في عام ٥٧٠هـ/١١٧٤م وتمكن المسلمون من أخذ هذه المنطقة(١٩)، وواصلوا زحفهم إلى نهر واله وهزموا وإليها «بهيم ديوا» وظلوا ينتقلون من معركة إلى أخرى حتى تمكنوا من الاستيلاء على بلاد السند كاملة(٢٠).

وبعد أن اطمأن غياث الدين إلى إقرار الأمور في السند، توجه بقواته الأفغانية وغيرها إلى لاهور(٢١) لطرد الغزنويين من آخر معاقلهم في بلاد الهند، وضرب حولها حصاراً شديداً وأرسل إلى أهلها وأميرهم خسرو شاه(٢٢) الغزنوي يعرض عليهم الأمان على أنفسهم وأموالهم، كما عرض على الأمير نفسه إقطاعاً، وحذَّر الجميع عاقبة الوقوف في وجهه، وعندما شعر هؤلاء بعجزهم استسلموا لقوات غياث الدين التي دخلت المدينة في عام ٥٧٩هـ/١١٨٣م(٢٣)، وبدخولها إلى هذه المدينة أصبح إقليم البنجاب بأكمله تحت سيطرته إضافة إلى إقليم السند(٢٤).

بعد هذه المرحلة عهد السلطان غياث الدين بولاية لاهور إلى أخيه شهاب الدين الذي عمل على تثبيت العقيدة الإسلامية في هذه البلاد. ونشرها في أماكن جديدة، حتى تمكن في نهاية المطاف من تكوين أول دولة إسلامية في بلاد الهند(٢٥).

أدرك الأمراء الهنود خطورة الموقف الذي أخذت تشكله القوات الإسلامية الأفغانية تحت قيادة شهاب الدين، فتعاقدوا فيما بينهم، ونسوا خلافاتهم وحشدوا جيشاً موحداً كثير العدد والعدة(٢٦)، وقد علم المسلمون بما بيَّته الأمراء الهنود، فأعدوا العدة للمواجهة، وكان اللقاء بين الطرفين في عام ٥٨٣هـ/١١٨٧م على بعد أربعين ميلاً من دهلي، واشتدت المعركة بين الطرفين ورجحت كفة الهنود، وظل المسلمون في مواقعهم حتى جرح الأمير شهاب الدين جرحاً بليغاً، وكاد أن يقع أسيراً في يد أعدائه، لولا أن حمله بعض رجاله إلى مكان آمن(٢٧).

عادت القوات الإسلامية إلى لاهور بعد معركة دامية خسرت فيها الكثير، وبعد فترة زمنية أخذ الأمير شهاب الدين في إعادة تنظيم قواته، وحشد مزيداً من العدة والعتاد، وكان جرحه قد أشرف على الشفاء، بدأ يشد الرحال للانتقام لنفسه ولكرامة جيشه وأمته من أمراء الهنود، وكان ذلك في عام ٥٨٨هـ/١١٩٢م، وقبل التقاء الطرفين تدخل أحد شيوخ الأسرة لإصلاح ذات البين بين الأمير شهاب الدين وبعض قياداته خاصة

وأن شهاب الدين اعتقد أنهم قصروا في واجب الدفاع والصمود أمام الهنود في المعركة السابقة فكان لا يتحدث معهم ولا يسلّم عليهم، ويبدو عليه أنه كان متأثراً بشكل ملحوظ من رجاله، إذ قال لهذا الشيخ «اعلم أنني منذ أن هزمني هذا الكافر، لم أنم مع زوجتي، ولم ألبس ثياباً بيضاء، وأنا سائر إلى عدوي ومعتمداً على الله..... فإن نصرني الله سبحانه ونصر دينه، فمن فضله وكرمه، وإن انهزمنا فلا تطلبوني، فما انهزمت ولو هلكت تحت حوافر الخيل(٢٨)».

بهذه العبارات القوية المفعمة بالتصميم والإيمان المرتكزة على ما أعدَّه لأعدائه من قوة ومن رباط الخيل كان رد الأمير شهاب الدين الذي لم يلبث أن يستجيب لمطلب الشيخ وتصافح الجميع، وساروا بقواتهم لمواجهة العدو المتربص والذي كان يطمح بدوره أن ينزل هزيمة أخرى بقوات المسلمين.

اقتربت القوات الإسلامية من القوات الهندية ووقع بين الطرفين احتكاكات ساخنة، انسحبت على أثرها القوات الإسلامية بناء على خطة أعدت مسبقاً، واعتقد الهنود أن الوهن والضعف قد تسرب إلى صفوف المسلمين فتعقبوهم، وأرسل القائد الهندي برتهي راج رسالة توبيخ وتقريع للأمير شهاب الدين جاء فيها «أعطني يدك أنك تصافحني في باب غزنة حتى أجيىء وراءك، وإلا فنحن متقلون، ومثلك لا يدخل البلاد شبه اللصوص ثم يخرج منها هارباً، ما هذا فعل السلاطين».

فأعاد السلطان الجواب «أنني لا أقدر على حربك»(٢٩) لكن ذلك لم يمنع المسلمين من إتمام خطتهم، وعند المكان المتفق عليه، توقفت القوات الإسلامية، وأخذت في تجميع نفسها وأعادت تنظيم صفوفها، فاختار السلطان من بين رجاله سبعين ألف مقاتل وأمرهم بالالتفاف حول معسكرات العدو ليلاً، وتمكَّنوا من حصارهم، وعندما طلع النهار، كانت خيول المسلمين تدك معاقل المشركين الذين فوجئوا بانقضاض المسلمين على معسكراتهم وهزم الهنود، ووقع قائدهم أسيراً في يد المسلمين الذين غنموا الكثير من معسكرات العدو(٣٠).

وكان لهذا الانتصار الإسلامي الرائع في هذه الربوع آثار بعيدة المدى في شمال الهند، حيث تقلص نفوذ أمراء الهنود، وامتد سلطان المسلمين على بلاد جديدة في هذه

المنطقة(٣١)، وانتصر السلطان لدين الله فحطَّم الأصنام وبيوت العبادة الوثنية وشيَّد المساجد(٣٢)، وسار بعدها يفتح القرى والمدن الواحدة تلو الأخرى، ثم سار إلى دهلي وهي من كبريات المناطق التي فتحت ودخلها الإسلام(٣٣).

هكذا توسعت الممتلكات الإسلامية في بلاد الهند وترسَّخت قواعد عقيدتهم هناك(٣٤)، عاد بعدها شهاب الدين إلى غزنة بعد أن ترك ولاية البلاد إلى قائده قطب الدين أيبك الذي اتخذ من دهلي مقراً له(٣٥).

أدرك الهنود خطورة الموقف بعد تلك الانتصارات الإسلامية فانتهزوا فرصة عودة شهاب الدين إلى غزنة، ورصوا صفوفهم استعداداً لمهاجمة المسلمين، وفي هذه الأثناء كان شهاب الدين قد وصل إلى الهند في عام ٥٩٠هـ/١١٩٤م، وانضمت إليه قوات قائده قطب الدين والي دهلي، وجرت معركة بين المسلمين والهنود، فصبر الكفار لكثرتهم وصبر المسلمون بقوة إيمانهم وشجاعتهم، فكان نصر الله والفتح، إذ هُزم الهنود وكثر القتل في صفوفهم وكان من بين القتلى «جايا جندار» القائد الهندي الذي لم يعرف إلا من خيط الذهب الذي كان يشد به أسنانه، وغنم المسلمون غنائم كثيرة، كان من بينها تسعون فيلاً، وحمل من خزائنها على ألف وأربعمائة جمل(٣٦)، وسار الجيش الإسلامي إلى نبارس، ودخلها وحطم فيها بيوت الوثنية ومراكزها وأقام المساجد، إذ كان يرافقه الفقهاء والمعلمون لتعليم الناس مبادىء الدين الإسلامي الحنيف.

وبينما كان قطب الدين مستمراً في فتوحاته كان بعض قادته يقومون بدورهم بضم المناطق في شمال الهند حتى أصبحت هذه المنطقة بكاملها تحت السيطرة الإسلامية(٣٧).

تمكَّن محمد بن بختيار أحد قادة قطب الدين من ضم منطقة «بالا»(٣٨) التي كان معظم سكانها وثنيين، فحطم المسلمون المعابد والأصنام، وأقاموا بدلاً منها المساجد بعد أن عملوا على نشر الإسلام وتثبيت قواعده في هذه البلاد(٣٩).

ولم يتوقف القائد محمد عند هذا الحد بل واصل فتوحاته في منطقة البنجاب حتى تمكن من الاستيلاء عليها وأسس فيها مدينة كبيرة سماها «رنكبور»(٤٠) وأسس بها المساجد والزوايا والمدارس وجعلها دار ملكه(٤١). بعدها توجه بختيار إلى التبت في عام ٦٠٣هـ/١٢٠٦م، إلا أنه لم يتمكن من فتحها، ورغم ذلك فقد استقر الحكم الإسلامي

في بلاد الهند وانتشر الإسلام في بلاد لم تطأها أقدام المسلمين من قبل، وباتت معظم منطقة البنجاب تحت الحكم الإسلامي(٤٢). وعندما حاولت بعض القبائل الارتداد والتمرد في المنطقة الواقعة بين غزنة ولاهور، نجد أن الهنود سارعوا إلى استغلال هذه الفرصة لتأييد حركة التمرد ضد المسلمين(٤٣) إلا أن القوات الإسلامية الأفغانية كانت لهم بالمرصاد، إذ تقدمت بقيادة شهاب الدين وأنزلت هزيمة مريرة بهذه القبائل ومن وقف إلى جانبها(٤٤).

وهكذا عاد الأمن والهدوء إلى تلك الربوع، وتهافت زعماء القبائل هناك إلى السلطان يجددون الطاعة والولاء(٤٥)، وكان من بين هذه القبائل قبائل التيراهية وهم كفار كانوا يسكنون المنطقة المحيطة بمنطقة فرشابور، وهي مدينة وولاية واسعة من أعمال لها وون بينها وبين غزنة(٤٦)، ويذكر ابن الأثير «إنهم يغيرون على أطراف البلاد وكانوا كفاراً لا دين لهم يرجعون إليه، ولا مذهب يعتمدون عليه.... ولم يزالوا كذلك حتى أسلمت طائفة منهم آخر أيام شهاب الدين فكفوا عن البلاد» وكان زعيمهم قد سار مع بعض رجاله وأعلنوا إسلامهم على يدي السلطان، ثم عادوا إلى بلادهم وأمن الناس شرهم(٤٧) ولم يتوقف نشاط شهاب الدين عند هذا الحد، بل أسس في مدينة أجمير مدرسة لتعليم الناس مبادىء الدين الإسلامي الحنيف، ومدينة أجمير تُعتبر من أهم مراكز الدعوة الإسلامية في الهند حيث كافح وجاهد لنشر الإسلام في هذا العهد الشيخ معين الدين جشتي الذي كان أعظم مبشر إسلامي في أرض الهند على مدى التاريخ(٤٨) وكان له في أجمير زاوية خاصة وأسلم على يده آلاف الهنود، هذا إلى جانب العديد من المدارس التي أسست على يد قادة السلطان شهاب الدين ومماليكه في العاصمة دهلي، وفي أثناء المد الإسلامي في بلاد الهند في هذه الفترة قدم الشيخ نور الدين المبارك الغزنوي، وأخذ يعمل على نشر العقيدة الإسلامية في البلاد ودخل آلاف مؤلفة من الهندوس في الإسلام، وكان الشيخ الغزنوي قد تتلمذ على يد الشيخ الشهاب عمر بن السهروردي وبسببه أي الشيخ الغزنوي ظهرت في الهند الطريقة السهروردية التي تعدُّ من أشهر الطرق الصوفية(٤٩).

ولقد حرص المسلمون على إنشاء المدارس والمكتبات في بلاد الهند، حتى أن سائحاً صينياً شاهد في الهند عام ٦٣٠هـ/١٢٣٣م مكتبة في كل زاوية وخنقاه، وقد حمل معه

إلى الصين ذخيرة هائلة من المكتبة الملحقة بدار العلوم، ناهيك عن المكتبات التي كانت في كل مسجد، وفي دهلي وحدها بلغ عدد المساجد ما يقرب من ألف مسجد(٥٠)، ولا عجب في ذلك فقد كان وإلى الهند آنذاك هو قطب الدين أيبك الذي عرف بالتدين والصلاح والتقوى، وقد أعاد للإسلام في الهند رونقه وصفاءه وهيبته بل وعظمته، وكان وجود قطب الدين أكبر باعثاً على نشر الفقه الحنفي في الهند، كما وجه عناية خاصة إلى إصلاح الحياة الدينية للمسلمين، وأول ما فعله في هذا الصدد، أنه حط فور توليه السلطة في دهلي عن أهل الهند جميع الضرائب التي فرضها عليهم السابقون من الولاة وبدون دليل شرعي، وقرر العشر بموجب حكم الشريعة الإسلامية، وكذلك ألغى الضرائب التي طرأت على المجتمع الإسلامي، وأرشد الناس إلى اتباع سنة المصطفى صلى الله عليه وسلم(٥١)، وكان وثيق الصلة بالمرشد الإسلامي الكبير الشيخ معين الدين الجشتي الذي كان قد وفد أيام السلطان شهاب الدين قادماً من سجستان وأرسى قواعده في بلده أجمير التي أصبحت فيما بعد أكبر مركز لنشر الإسلام(٥٢) كما سبق وأن أشرنا. ومن أعظم الشخصيات العلمية التي عرفها بلاط الدولة الإمام رضي الدين الصغاني الذي ولد بمدينة لاهور في ١٥ صفر ٥٧٧هـ/١١٨١م وله مؤلفات ضخمة في اللغة والأدب والحديث والفقه(٥٣).

لم يقتصر دور الجهاد الأفغاني في هذه الفترة على توسيع رقعة الإسلام في بلاد الهند ونشره، وإنما كان يقوم بدور التصدي لأعدائه على جبهة أخرى ومحاولة منعهم من تحقيق أية مكاسب على حساب المسلمين، ويتضح ذلك من خلال وقوفهم في وجه الخطا الذين استغلوا فرصة الصراع بين الدولة السلجوقية التي تناثرت أجزاؤها بين أبناء الأسرة(٥٤) وبين الدولة الخوارزمية الناشئة. وكان ذلك الصراع قد اشتد بين الطرفين أثناء حكم السلطان سنجر السلجوقي والسلطان اتسز الخوارزمي، وقد لجأ الأخير إلى تحريض الخطا على الاستيلاء على كل بلاد ما وراء النهر، ويهوّن عليهم أمر السلطان السلجوقي سنجر(٥٥)، الأمر الذي شجع الخطا على إعداد العدة والاندفاع في عام ٥٣٦هـ/١١٤١م إلى بلاد ما وراء النهر(٥٦)، وتمكّنوا من احتلالها، لم يقف الأمر عند هذا الحد، بل أخذ هؤلاء الخطا يتطلعون إلى الممتلكات الخوارزمية غرب نهر جيحون، فاندفعوا إلى هناك في العام التالي أي عام ٥٣٧هـ

ودخلوا إلى سرخي(٥٧) ومرو(٥٨) ونيسابور(٥٩) إلا أنهم عادوا أدراجهم مكتفين بأن يكون نهر جيحون حداً فاصلاً بينهم وبين الخوارزميين(٦٠) الذين وافقوا على دفع مبلغ كبير من المال للخطا، مقابل انسحابهم إلى ما وراء نهر جيحون(٦١).

وفي فترة لاحقة زالت الدولة السلجوقية من بلاد فارس بعد وفاة السلطان سنجر عام ٥٥٢هـ/١١٥٢م(٦٢) وورث الخوارزميون ممتلكاتها. لم يرض الخطا عن تصاعد ونمو الدولة الخوارزمية، فهاجموها في عام ٥٦٨هـ/١١٧٢م وأوقعوا الخراب والدمار في ديارهم ثم عادوا إلى مقرهم في بلاد ما وراء النهر(٦٣)، وفي نفس هذه السنة توفى السلطان إيل أرسلان الزعيم الخوارزمي(٦٤)، واحتدم الصراع بين أولاده علاء الدين تكش وسلطان شاه، إلا أن هذا الصراع قد حسم لصالح علاء الدين تكش بعد وفاة أخيه سلطان شاه في عام ٥٨٩هـ/١١٩٣م(٦٥).

أخذت قوة علاء الدين تتنامى يوماً بعد آخر حتى أنه أخذ يفكر في مد نفوذه إلى بغداد نفسها، وأن يذكر اسمه على منابر بغداد مع الخليفة العباسي ويكون الخليفة تحت يده(٦٦).

هنا بدأ الدور الأفغاني يظهر على مسرح الأحداث السياسية، فالخليفة الناصر العباسي شعر بخطورة الموقف، كما شعر أنه عاجز عن التصدي لأطماع الخوارزميين، الأمر الذي دفعه إلى الاستنجاد بغياث الدين الغوري زعيم الأفغان ويحرضه على مهاجمة الخوارزميين إن لم يمتنعوا عن تهديد الخلافة(٦٧)، فاستجاب غياث الدين لمطلب الخليفة، الأمر الذي دفع علاء الدين نكش أن يلجأ إلى الخطا ويحرضهم على مهاجمة الغوريين ويحذرهم من التأخر في ذلك، لأن قوة الغوريين تشكل خطراً على المصالح الخطائية في المنطقة(٦٨).

اقتنع الخطا برأى علاء الدين تكش فوجّهوا جيوشهم صوب الأراضي الغورية حيث التقت بقوات المسلمين وكانت الحرب سجالاً بين الطرفين وتكبّد المسلمون الكثير من الخسائر المادية والمعنوية، إلا أن نهاية المعركة أسفرت عن انتصار مؤزر للقوات الإسلامية الأفغانية وقتل الكثير من الخطا وبعثرت قواتهم ومزقت شر ممزق(٦٩).

كانت ردة فعل الخطا على هذه الهزيمة أن ألقوا تبعة الهزيمة على علاء الدين الزعيم الخوارزمي وطالبوه بدفع ديات القتلى التي كانت تشكل مبلغاً هائلاً من الأموال، وإذا امتنع علاء الدين عن الدفع هدده الخطا باجتياح بلاده(٧٠). وقد رأى علاء الدين في هذه المطالب إذلالاً وإهانة له ولبلاده إن استجاب لها، فاتخذ قراراً كان إلى الصواب أقرب وإلى الواقع ألصق، عندما قرر الاتصال بغياث الدين الزعيم الأفغاني وشرح له الظروف التي تواجهه(٧١)، وفاتحه في أمر المصالحة، فوافق غياث الدين الغوري على المصالحة شريطة ألا يتعرض علاء الدين إلى الخلافة بسوء وتم الاتفاق بين الزعيمين المسلمين(٧٢)، وكانت ردة الفعل الأولى لهذا الاتفاق أن قام علاء الدين بإرسال رده على مطالب الخطا التي رفضها تماماً وجاء في رسالته إلى زعيم الخطا «.... إن عسكرك، إنما قصد انتزاع مدينة بلخ، و لم يأتوا إلى نصرتي ولا اجتمعت بهم... وإن كنت فعلت ذلك فأنا مقيم بالمال المطلوب مني، ولكن حيث عجزتم عن الغورية عدتم عليَّ بهذا القول»(٧٣).

ولقد أثار هذا الرد حفيظة الخطا وغضبهم على علاء الدين فجهزوا جيشاً عبروا به إلى الأراضي الخوارزمية، ودارت بين الطرفين معارك شديدة هزمت على أثرها قوات الخطا عام ٥٩٤هـ/١١٩٧م، وتعقب الخوارزميون فلول القوات المنهزمة حتى أخذت منهم مدينة بخارى(٧٤) في نفس السنة، وبمرور الزمن عاد التوتر من جديد بين الخوارزميين والغوريين، وتبادلوا الاعتداءات حتى أن السلطان خوارزمشاه محمد الذي تولى بعد وفاة والده علاء الدين تكش عام ٥٩٧هـ/١٢٠٠م أرسل رسالة عتاب يتخللها تهديد ووعيد إلى غياث، مطالباً إياه بالكف عن الاعتداء على أراضيه، ويطالبه بإعادة ما أخذه منها ويظهر في رسالته أنه يهدد بالاستعانة بالخطا من جديد، وجاء في رسالته:

«كنت أعتقد أن تخلف علي بعد أبي، وأن تنصرني على الخطا وتردهم عن بلادي، فحيث لم تفعل فلا أقل من أن لا تؤذيني وتأخذ بلادي والذي أريده منك أن تعيد ما أخذته مني إلي وإلا استنصرت عليك بالخطا»(٧٥).

وواضح من نص الرسالة أن الخطا لا زالوا قريبين من مسرح الأحداث، وهم يلعبون بالورقة الرابحة، بل والمرجحة في ذلك الصراع بين الدولتين المسلمتين، خاصة وأن هؤلاء

الخطا لا زالت لهم تطلعات في اختراق الحدود الإسلامية والانتقام لانفسهم بسبب هزائمهم السابقة، وكان على غياث الدين أن يكون حذراً من بروز تحالف جديد يجمع بين الخطا والخوارزميين، فأخذ يماطل في الإجابة عن رسالة خوارزم مشاه محمد، إلا أن هذا الاخير جمع قواته وهاجم الغوريين، وتمكن من استرجاع ممتلكاته(٧٦). وفي عام ٥٩٩هـ/١٢٠٢م توفى غياث الدين وخلفه أخوه شهاب الدين(٧٧)، الذي دخل في صراع مع الخوارزميين استمراراً للصراع السابق، ففي عام ٦٠٠هـ/١٢٠٣م وقعت مصادمات عنيفة بين الطرفين، وبدت الغلبة فيها لشهاب الدين الغوري، إلا أن الخوارزميين استنجدوا بالخطا ليساعدوهم ضد القوات الأفغانية الإسلامية، وقد أدى ذلك تغيير مسار المعركة ونتيجتها، فهزمت القوات الأفغانية وبعثرت وكثرت الأراجيف والإشاعات حول وقوع شهاب الدين في الأسر، إلا أن الأمور انجلت في نهاية المطاف عن صمود شهاب الدين وتمكّنه من توقيع اتفاق مع الخطا(٧٨)، يكون مقتضاه نهر جيحون حداً فاصلاً بين الطرفين(٧٩).

عاد شهاد الدين بعد ذلك إلى بلاده، وأخذ يعمل على تنظيم صفوفه ومداوات الجراح التي ألمَّت ببلاده على أثر تلك الهزيمة، بعد أن إطمأن شهاب الدين إلى جبهته الداخلية أخذ يعد العدة للانتقام من الخطا، فأرسل إلى نائبه بلها وور والملتان وهو محمد بن علي يأمره بحمل المال لسنتين متتاليتين ليتجهز بهذه الأموال لمحاربة الخطا(٨٠)، وبعد أن تمت الاستعدادات أمر بالنداء في العساكر بالتجهيز، وأن المسير يكون في أول شوال، وما كادت القوات تضع اللمسات الأخيرة نحو تحركها صوب الخطا حتى زادت الشكايات والأراجيف من بني كوكر(٨١) الذين أفسدوا في البلاد وقطعوا الطرق وأخافوا العامة، وساعدهم في ذلك وقوف الهنود إلى جانبهم(٨٢)، وعندما علم شهاب الدين بهذه الأحداث، تغير عزمه عن غزو الخطا، وقرر التوجه إلى بني كوكر، وبالفعل توجهت قواته إلى هناك، وانضمت إليه قوات قائده قطب الدين أيبك، وحاصروا بني كوكر ونادوا بشعار الإسلام، وغنم المسلمون منهم ما لم يسمع بمثله(٨٣)، بعد أن أوقعوا بهم هزيمة كبيرة، سار بعدها شهاب الدين إلى منطقة لهاوور القريبة من بني كوكر، وكانت قد عانت من فسادهم، فأراد شهاب الدين أن يؤمن أهلها ويسكن روعهم(٨٤)، بعد ذلك أمر شهاب الدين بالتجهيز

وشكل حملة عسكرية جديدة للانتقام من الخطا، وفرَّق الأموال على جنوده، وطلب من قواته في الهند وخراسان الانضمام إليه، ويذكر ابن الأثير «أنه كان على نية صالحة من قتال الكفار، إلا أن القدر لم يمهله لتنفيذ مخططه، إذ تم اغتياله بينما كان يؤدي صلاة العشاء، على يد مجموعة لم تتفق المصادر على هويتها أو دوامها»[٨٥]. وبموته يسدل الستار على نشاط دولة لعبت دوراً بارزاً في خدمة الإسلام والمسلمين ولا زالت تواصل مسيرتها رافعة راية الجهاد ضد قوى البغي والإلحاد، وصدق الله مولانا العظيم إذ يقول في محكم كتابه «إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم».

○ ○ ○

● هوامش البحث ●

١ ــ الخطا ــ بكسر الطاء وفتح الطاء ــ قبائل هاجرت من موطنها في شمال الصين في منتصف القرن السادس الهجري ــ الثاني عشر الميلادي ــ إلى غرب اقليم التركستان الذي كان يعاني من ضعف عام، الأمر الذي مكّن من دخول بلاساغون شمال كاشغر عاصمة الإقليم، وتوسعوا في المنطقة وأقاموا لهم دولة، واتخذوا من الوثنية ديانة رسمية لهم.

القلقشندي: صبح الأعشى ٤٨١/٤.

حافظ حمدي: الدولة الخوارزمية ص ٥١.

٢ ــ هراة: مدينة عظيمة من أمهات مدن خراسان، يقول ياقوت «لم أر بخراسان عند كوني بها عام ٦٠٧هـ مدينة أجل ولا أعظم ولا أضخم ولا آمن ولا أكثر أهلاً منها، محشوة بالعلماء، ومملوءة بأهل الفضل والثراء. فتحت في زمن الخليفة عثمان بن عفان.

ياقوت: معجم البلدان ٣٩٦/١٠.

القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد ص ٢٨١.

أبو الفدا: تقويم البلدان ص ٤٤٥.

٣ ــ غزنة ولاية واسعة في طرف خراسان بينها وبين بلاد الهند، كثيرة الخيرات، وهي منطقة جبلية ينتمي إليها عدد من العلماء والأدباء وهي فرقة الهند، وموطن التجارة.

ياقوت: ٢٠١/٧

القزويني: نفسه ٤٢٨

أبو الفدا: نفسه ٤٦٧

٤ ــ ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٢٢١/٩ ــ ٢٢٢

القزويني: نفسه ص ٤٣.

٥ ــ K.Ali. A New History of India-Pakistan' P.34 Dacca' 1970

L. Poole. The Mohammadan Dynasties, P. 29, Paris, 1925

٦ ــ وكان هذا هدفه في غزواته المتعددة بدليل أنه عندما وجه حملة إلى تهانسير وأمر بتحطيم ما فيها من أصنام تدخل بعض أمراء الهنود من أصدقاء السلطان وطلبوا منه عدم تحطيم الأصنام مقابل مبلغ هائل من المال يدفع له. فكان رد السلطان نحن المسلمين نعمل أولاً على نشر الإسلام، وهدم معابد الأصنام، ونعتقد أننا سنجد ذلك أضعافاً مضاعفة من الأجر والثواب عند الله ولا حاجة لنا إلى المال.

ابن الأثير: الكامل ١٣٩/٩.

وانظر Sykes: Cambridge' Hist. of India' Vol. Ip. 141

Imanul - Haq. Short Hist. of Modern role in Indo - Pakistan' P. 23 - 24.

٧ — ابن الاثير: نفس المصدر ٢٢٢/٩.

٨ — البيهقي: تاريخ بيهق ١٢٣ — ١٢٤ — ترجمة يحى الخشاب ط ١٩٨٢.

٩ — ابن الاثير: المصدر والصفحة.

١٠ — السلاجقة: مجموعة قبائل تركية عاشت في تركستان، ثم اندفعت غرباً حتى استقرت في إقليم ما وراء النهر في أواخر القرن الرابع وأوائل الخامس الهجريين، ثم انتقلوا بعد مدة قصيرة إلى خراسان، حيث تمكنوا من إقامة دولة لهم في عام ٤٢٩هـ/١٠٣٧م ولم تلبث هذه الدولة أن بسطت نفوذها على إيران والعراق وعلى أكثر أجزاء الشام وآسيا الصغرى.

عبد المنعم حسنين: سلاجقة إيران والعراق ١٣٨٠ — ١٩٧٠ مكتبة النهضة المصرية مطبعة السعادة ص ١٦.

١١ — L.Poole. Medieval India under the Mohammadan role P 46 - 47' New York 1970

١٢ — البيهقي: تاريخ البيهقي ص ٤٣٠.

عصام عبد الرؤوف: بلاد الهند في العصر الإسلامي ص ٣٩ ط ١٩٨٢م.

١٣ — L. Poole: Medieval India' P 53

١٤ — كانت وفاته عام ٥٥٦ هـ، ابن الأثير الكامل ١٦٦/١١ — ١٦٧.

١٥ — نفس المصدر ص ١٦٧.

١٦ — نفس المصدر والصفحة.

١٧ — Banker: A Survey of India' P 122-123.

١٨ — الملتان وتكتب مولتان، وهي مدينة من نواحي الهند قرب غزنة، وبها صنم تعظمه الهنود ويحجون إليه، فتحها محمد بن القاسم، أهلها مسلمون وكفار والإسلام بها غالب. ياقوت. نفس المصدر ٢٢٧/٩.

القزويني ص ١٢١.

أبو الفدا: تقويم البلدان ٣٥١.

١٩ — Sykes: Hist. OF Afghanistan' Vol. Ip 211, New York 1975,Imanul Haq. A Short Hist. OF Moslem Role in Indo - Pakistan' P 28. 1970

٢٠ — K.Ali- A New Hist. of Indo- Pakistan' p 35-36.

٢١ — لهاوور: وتلفظ لوهور، وهي مدينة عظيمة في بلاد الهند وينسب إليها كثير من العلماء.

ياقوت: نفس المصدر ٢٦/٩

أبو الفدا: نفس المصدر ٣٥٩

٢٢ — خسرو شاه: هو ابن بهرام شاه بن مسعود بن إبراهيم.... بن محمود من سبكتين تولى زعامة الأسرة الغزنوية بعد وفاة والده عام ٤٥٧ هـ وظل حاكماً حتى داهمته القوات الغورية عام ٥٥٥ هـ.

ابن الأثير: ١٦٨/١١ — ٢٦٢.

٢٣ — ابن كثير: البداية والنهاية ٢٤٢/١٢ بيروت ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٣م

عبد الحي الحسني: الهند في العصر الإسلامي ص ١٦٨ ط ١٣٩٢ هـ/١٩٧٢م.

٢٤ — K. Ali A New Hist. of Indo - Pakistan' p 35-36.

٢٥ — Ibid' p.36

٢٦ — L. Poole Medieval India' P. 51

٢٧ — ابن الأثير ٥٦١/١١.

٢٨ — نفس المصدر ٩٢/١٢.

٢٩ — نفس المصدر والصفحة.

٣٠ — نفس المصدر ص ٩٣، L.Poole. Medieval' P. 53

٣١ — ابن الأثير ٩٣/١٢.

٣٢ — K.Ali: A New Hist. of Indo-Pakistan' p38.

٣٣ — ابن الأثير ١٧٤/١١.

٣٤ — K. Ali ' p38

٣٥ — Imanul Haq p. 29

٣٦ — ابن الأثير ١٠٥/١٢ — ١٠٦.

١٣٧ —عصام عبد الرؤوف، بلاد الهند في العصر الإسلامي ص ٤٣.

٣٨ — بالا، قرية من قرى مرو.
ياقوت: معجم ٣٢٨/٢.

٣٩ — L.Poole'; Medieval' p. 54

٤٠ — محمد إسماعيل الندوي تاريخ الصلات بين الهند والبلاد العربية ص ١٨٨.

٤١ — محمد الندوي تاريخ الصلات بين الهند والبلاد العربية ص ١٣٨ ط ١.

٤٢ — K. Ali' p. 40

٤٣ — ابن الأثير ٢٠٨/١٢.

٤٤ — نفس المصدر والصفحة.

٤٥ — L.Poole' Medieval' p 55

٤٦ — ياقوت معجم مادة فرشابور.

٤٧ — ابن الأثير ٢١٢/١٢.

٤٨ — ويذكر الدكتور عبد المنعم النمر أنه أسلم على يديه حوالي تسعة ملايين هندي تاريخ الإسلام في الهند ص ١٠٤ ط ١٣٧٨هـ/١٩٥٩م ويذكر الندوي أنه أسلم على يده آلاف الهنود وهو الأقرب إلى الصحة ص ١٩٥.

٤٩ — محمد الندوي ص ١٣٨.

٥٠ — نفس المصدر ص ٢٠٠.

٥١ — نفس المصدر ص ١٣٨.

٥٢ — نفس المصدر ص ١٨٨.

٥٣ — محمد الندوي ص ١٨٠.

٥٤ — عبد المنعم حسنين: سلاجقة إيران والعراق ص ١٠٨.

٥٥ — حافظ حمدي: الدولة الخوارزمية والمغول ص ٢٠ — ٢١ دار الفكر ١٩٤٩.

٥٦ — ابن الأثير ٨١/١١.

٥٧ — سرخس: مدينة كبيرة وواسعة من مدن خراسان وتقع بين نيسابور ومرو في وسط الطريق، وليس بها أنهار، والغالب على نواصيها المراعي وينسب إليها الكثير من العلماء والفقهاء.
ياقوت: ٣٠٨/٥ دار صادر للطباعة والنشر — بيروت ١٣٧٤/١٩٥٥.

٥٨ — مرو: أشهر مدن خراسان وقصبتها يخترقها أنهار كبيرة تسقي أكثر ضياعها، وهي أرض خصبة ذات زروع متنوعة وينسب إليها كثير من العلماء والفقهاء.
ياقوت: ١٢/٩ — القزويني ٤٥٦.

٥٩ ـــ نيسابور إحدى مدن خراسان. وهي معدن الفضلاء ومنبع العلماء، فتحها المسلمون في عهد الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه عام ٣١ هـ. ياقوت: نفس المصدر ٣٣١/١٠.

٦٠ ـــ Skrin & Ross: The heart of Asia' p. 139

٦١ ـــ حافظ حمدي: ص ٥٤.

٦٢ ـــ ابن الأثير ٢٢٢/١١. أحمد كمال: السلاجقة في التاريخ والحضارة ص ٦٥.

٦٣ ـــ حافظ حمدي: ص ٥٥.

٦٤ ـــ ابن الأثير ١٠٦/١٢ احمد كمال ـــ السلاجقة ص ٦٨.

٦٥ ـــ Skrin & Ross: P. 146- London 1899.

٦٦ ـــ السيوطي: تاريخ الخلفاء ص ٤٥٤ ـــ ٤٥٥.

٦٧ ـــ ابن الأثير ١٣٥/١٢.

٦٨ ـــ وقد تصادف في هذه الفترة أن قامت القوات الأفغانية بالاستيلاء على مدينة بلخ التي كانت تدفع أموالاً سنوية للخطا. ابن الأثير ١٣٤/١٢.

٦٩ ـــ ابن الأثير ١٣٦/١٢.

٧٠ ـــ حافظ حمدي ص ٥٨.

٧١ ـــ ابن الأثير ١٣٧/١٢.

٧٢ ـــ نفس المصدر والصفحة.

٧٣ ـــ المصدر والصفحة.

٧٤ ـــ ابن الأثير ١٣٧/١٢.

٧٥ ـــ ابن خلدون. العبر ٢٠٩/٥.

٧٦ ـــ ابن الأثير ١٧٤/١٢ ـــ ١٧٦.
ابن خلدون العبر ٢١٠/٥.

٧٧ ـــ ابن العماد: شذرات الذهب ٣٤٢/٤ ط ١٣٥٠ القاهرة مكتبة القدسي.
ابن كثير: البداية ٣٤/١٣.

٧٨ ـــ أرمينوس فاصميري تاريخ بخاري ص ١٥٢ حاشية ٢
ترجمة أحمد الساداتي ط ١٨٧٢.

٧٩ ـــ ابن الأثير ١٨٦/١٢ ـــ ١٨٩.

٨٠ ـــ نفس المصدر ص ٢٠٩.

٨١ ـــ بنو كوكر: قبائل كانت تسكن الجبال الواقعة بين غاوور والمولتان، وكانوا في طاعة شهاب الدين الغوري، وكانوا بزعامة كوكر، وعندما وصلتهم شائعات بمقتل شهاب الدين ـــ عاثوا فساداً في المنطقة إلا أن شهاب الدين هزمهم وتمكن من إعادتهم للطاعة.

ابن الأثير ٢٠٩/١٢ ـــ ٢١٠.

٨٢ ـــ نفس المصدر والصفحة.

٨٣ ـــ نفس المصدر والصفحة.

٨٤ ـــ نفس المصدر والصفحة.

٨٥ ـــ نفس المصدر والصفحة.

• أهم مصادر البحث •

- ابن الأثير الكامل في التاريخ دار صادر بيروت علي بن الكرم د.ت ـ ن.
- البيهقي: تاريخ البيهقي ـ ترجمة يحيى الخشاب أبو الفضل صادق نشأت ـ دار النهضة العربية ـ بيروت ١٩٨٢.
- حسنين عبد المنعم: سلاجقة إيران والعراق ـ مكتبة النهضة المصرية ١٣٨٠ ـ ١٩٧٠.
- حمدي (حافظ) الدولة الخوارزمية والمغول ـ دار الفكر مصر ١٩٤٩.
- الحسني (عبد الحي) الهند في العصر الإسلامي ط ١٩٨٢ د.د.ن
- ابن خلدون (عبد الرحمن) العبر ط دار الكتاب د.ت.ن
- عبد الرؤوف (عصام) بلاد الهند في العصر الإسلامي ط ١٩٨٢م
- ابن العمادة (ابو الفلاح عبد الحي) شذرات الذهب في أخبار من ذهب ط ١٣٥٠ هـ د.د.ن
- السيوطي تاريخ الخلفاء ـ مطبعة السعادة ـ مصر جلال الدين عبد الرحمن ١٣٧١ ـ ١٩٥٢
- فامبري ارمينوس تاريخ بخاري ـ ترجمة أحمد السادات ط ١٨٧٢
- القلقشندي: صبح الأعشى، دار الكتب العلمية، بيروت.
- أبو الفدا (عماد إسماعيل) تقويم البلدان ـ مارس دار الطباعة السلطانية ١٨٤٠
- القزويني آثار البلاد وأخبار العباد ط بيروت زكريا بن الحسن د.ت.ن
- القلقشندي (أحمد بن علي) صبح الأعشى في صناعه الإنشاء.
- ابن كثير (عماد الدين أبو الفدا) البداية والنهاية ـ بيروت ١٤٠٤/ ١٩٨٣
- كمال أحمد: السلاجقة في التاريخ والحضارة ـ دار البحوث العلمية، الكويت ١٣٩٥/١٩٧٥
- الندوي (محمد إسماعيل) تاريخ الصلات بين الهند والبلاد العربية الطبعة الأولى ـ دار الفتح للطباعة والنشر بيروت
- النمر (عبد المنعم) تاريخ الإسلامي الهند ط ١٣٧٨/١٩٥٩
- ياقوت معجم البلدان ـ دار صادر للطباعة والنشر بيروت ١٣٧٤/١٩٥٥

- Banker A survey of India.
- Imanul Haq. A Short history of Modern role in Indo- pakistan- Pakistan 1970.
- Skrin & Ross. The heart of Asia.
- Sykes. Cambridge- History of India.
- L.Poole- The Mohammadan Dynasties' Paris 1925
- L. Poole -Medieval India under the Mohammadan role- New York 1970.
- Sykes. History of Afghanistan' New York 1975.